

## الباب الثالث

### الرازي وتفسيره مفاتيح الغيب

#### أ. ترجمة المفسر

١. اسمه ونسبه

اسمه محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي<sup>١</sup> البكري<sup>٢</sup> الطبرستاني<sup>٣</sup> الرازي<sup>٤</sup> الملقب بفخر الدين والرازي والإمام وشيخ الإسلام<sup>٥</sup>. كنيته أبو عبد الله كما في وفيات الأعيان وشذرات الذهب وعيون الأنبياء، وأبو المعالي كما في النجوم الزاهرة، وعرف بهما معا (أبو عبد الله وأبو المعالي) كما في عقد الجمان. وهو أبو الفضل على ما جاء في أخبار العلماء للقفطي وهو ابن خطيب الري. ولد في الري<sup>٦</sup> بطبرستان سنة أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة (٥٤٤ هـ) وهي كورة من مشاهير بلاد الديلم، قريبة من خراسان والنسبة إليها "رازي" كما في الأنساب للمسعاني. وصفه كان ربع القامة، وعبل الجسم، وكثير اللحية، وجهوري الصوت، وصاحب وقار وحشمة.

---

<sup>١</sup>نسبة إلى تيم من قريش، والتي ينتسب لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه. انظر أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (بيروت: دار صادر، د. ٢٤٨). وقيل بعض العلماء التميمي انظر محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون (القاهرة: مكتبة وهبة، ) وربما هذا من خطأ الكتابة او في الطباعة

<sup>٢</sup>نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان... ٢٤٨. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، طبقات المفسرين (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٦م / ١١٥هـ/١٩٧٦).

<sup>٣</sup>نسبة إلى إقليم طبرستان، والذي تقع فيه مدينة (الري).

<sup>٤</sup>محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢٠٦.

## ٢. رحلة العلمية

ولد في سنة ٥٤٤ هـ الموافق ١١٤٩ م بمدينة الري وقيل بأنه ولد سنة ٥٤٣ هـ. نشأ في بيت علم إذ كان والده الإمام ضياء الدين عمر بن حسن فقيها أصوليا متكلمًا صوفيا، وكان خطيب الري وعالمها وله تصانيف كثيرة في الأصول والوعظ وغيرها من أهمها غاية المرام في علم الكلام.<sup>٧</sup> وعلى يدي والده ابتداء فخر الدين الرازي طلبه للعلم في صباه، فتعلم العلوم الأولية فأغناه عن طلب العلم على يد سواه حتى وفاته سنة ٥٥٩ هـ. قد كان الرازي شديد الإعجاب بوالده فيذكر اسمه بإجلال واحترام ويدعوه "بالإمام السعيدة" ويجعله شيخه وأستاذه ويذكر السلسلة العلمية التي تلقاها عنه بكل اعتزاز.

وبعد أن توفي والده، رحل الرازي إلى سمنان ليشغل على كمال الدين أحمد بن زيد (الكمال السمناني) واشتغل عليه مدة ثم عاد إلى الري واشتغل على المجد الجيلي ولما طلب المجد مراغة لتدريس بها صحبه الرازي وقرأ عليه مادة طويلة الكلام والفلسفة.

وهكذا وجد الرازي نفسه منذ نعومة أظافره في بيت علم وبين يدي عالم من أعلام العلماء قضى الفترة الأولى من حياته ينهل من معين علومه ولذلك شغف بالعلم وأكب على الدرس والتحصيل، وحرص على أن لا يضيع ن حياته وقتا إلا في تعلم أو تعليم حتى أنه ليتمنى لو استطاع أن يستغني عن كثير من الحاجات الطبيعية ليحعل وقته المصروف فيها في طلب العلم. وقد كان وفاة الرازي سنة ست وستمائة من الهجرة (٦٠٦ هـ) بالري، ويقال في سبب وفاته أنه كان بينه وبين الكرامية

<sup>٧</sup> ابن السبكي، عيون الأنبياء

خلاف كبير وجدل في أمور العقيدة فكان ينال منهم وينالون منه سبا وتكفيرا واخيرا سموه فمات على إثر ذلك واستراحوا منه.<sup>٨</sup>

أخذ العلم عن كبار علماء عصره، ومنهم والده، حتى برع في علوم شتى واشتهر، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان. كان الرازي عالماً في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها. ترك مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه وسعة اطلاعه أبرزها تفسيره الكبير المعروف بمفاتيح الغيب، وهو تفسير جامعٌ لمسائل كثيرة في التفسير وغيره من العلوم التي تبدو دخيلة على القرآن الكريم، وقد غلب على تفسيره المذهب العقلي الذي كان يتبعه المعتزلة في التفسير، فحوى تفسيره كل غريب وغريبة كما قال ابن خلدون.

كان الرازي يرى أن تعلم العلوم جميعاً فرض من كل الفرائض الشرعية ولذلك أحب العلوم كلها وأقبل عليها بدون تفریق إلا ما يكون من فرق بين الفاضل والمفضول. والعلوم كلها في نظره لا تخرج عن كونها واجبا او مما لا يتم الواجب إلا به أو مما لا بد منه لتحقيق مصلحة من المصالح الدنيوية أو مما لا بد من تعلمه لمعرفة أضراره وأخطاره.

#### أ) التفسير

نال الرازي كمفسر شهرة واسعة وحظي تفسيره الكبير "مفاتيح الغيب" منذ تأليفه له حتى اليوم بإهتمام بالغ، وتناوله الكثيرون بالدرس والتعليق والنقد حتى جاء وقت لم يكن يطالع فيه أكثر المتعلمين سواه، وقد جمع الرازي في تفسيره كل غريب وغريبة، فهو كان يرى أن القرآن الكريم أصل العلوم كلها فيقول «أن القرآن أصل العلوم كلها فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ

<sup>٨</sup> الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢٠٧.

من القرآن، وكذا علم أصول الفقه. وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق، ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى»<sup>٩</sup> كما يرى أيضاً في إيراد مباحث العلوم المختلفة وغيره في التفسير ما يثبت الإيمان في القلب فيقول «وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من عليم الهيئة والنجوم، وذلك على خلاف المعتاد! فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته وتقريره من وجوه»<sup>١٠</sup>

وتسيطر عليه هذه الأفكار في تفسيره كله، ولذلك نراه يذكر الآية ثم يبين مناسبتها لما قبلها وما بعدها ويستطرد بعد ذلك في بيان ما يمكن أن تدل عليه، أو يدل عليها من المسائل الرياضية والطبيعية والفلكية مسانداً أو معارضاً مذاهب علماء تلك العلوم باستدلال عقلي قائم على الآية الكريمة،<sup>١١</sup> ثم يعالج المسائل الكلامية، أو الأصولية، أو الفقهية المتعلقة بالآية مرجحاً في الكلام مذهب أصحابه الأشاعرة غالباً وفي الأصول والفقه مذهب الشافعي إلا ما ندر.<sup>١٢</sup>

ولا ينسى وهو يتناول كل هذه الأمور المسائل اللغوية فيعطيها من بحثه قسطاً كبيراً، فيغوص وراء دقائق نحوية وبلاغية وغيرها قل ما تنبه إليها سواه وإذا ما أحس أنه ابتعد من جو الآية التي يفسرها فإنه سرعان ما يستدرك عائداً لربط ما استنبطه وما أورده من مسائل بالآية الكريمة،

<sup>٩</sup> تفسير الرازي الجزء الثاني ١٢٧.

<sup>١٠</sup> تفسير الرازي الجزء الاوالم ١١.

<sup>١١</sup> الامام الرازي ومصنفاته ٨٦.

<sup>١٢</sup> الامام الرازي ومصنفاته ٨٧.

وهو لا يتوقف عن الاستنباط والاستطراد ما دام يستطيع إيجاد صلة ولو كانت يسيرة ما بين المستنبط أو المستطرّد إليه واللفظ القرآني.<sup>١٣</sup>

ويرى الرازي كذلك أن على المفسر أن لا يكتفي بإيراد الأقوال الواردة في الآية وردها إلى أصحابها فحسب مع قطع النظر عن كونها متعارضة أو متوافقة، بل عليه أن يرجح ويختار ويبين ما هو الخطأ أو الصواب بالدليل الذي يمكنه الاستدلال به من الشريعة أو اللغة.<sup>١٤</sup>

### ب) علم الكلام

إن شهرة الرازي بعلم الكلام لا تقل عن شهرته في التفسير، فهو سلطان المتكلمين الذي الذي فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات،<sup>١٥</sup> كما يعتبره البعض رائداً لطريقة المتكلمين المتأخرين عن طريقتهم في إدخال الفلسفة ومباحثها في علم الكلام يقول ابن خلدون في تاريخه «ثمّ خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لاشتراكهما في المباحث، وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأثما فنّ واحد ثمّ غيّر ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوها فنّا واحدا قدّموا الكلام في الأمور العامة ثمّ أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثمّ بالرّوحانيات وتوابعها إلى آخر العلم كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام.<sup>١٦</sup>

<sup>١٣</sup> الذهبي، التفسير والمفسرون الجزء الاوالم ٢١٠.

<sup>١٤</sup> الرازي، مفاتيح الغيب الجزء الثاني ٢٥.

<sup>١٥</sup> الامام الرازي ومصنفاته ٨٨.

<sup>١٦</sup> وفيات الاعيان الجزء الرابع ٢٤٩.

ولم يقصر الفخر نشاطه في هذا العلم على التأليف والتدريس، بل سافر إلى البلدان التي توجد فيها فرق مخالفة لمنهج أهل السنة الأشاعرة كالمعتزلة والكرامية وغيرهم وعقد مع علمائهم مناظرات كثيرة في خوارزم وبخارى وسمرقند وخجند وبناكلت وغزنة وبلاد الهند، وقد كان يفلح فيها بإعادة الكثيرين من أصحاب تلك المذاهب إلى مذهب أهل السنة الأشاعرة، وقد كتب ذلك في كتاب "المناظرات" لتكون بمثابة سجل وتاريخ لنشاطه العلمي ورحلاته فهي مذكراته الشخصية عن هذه الفترة من حياته.<sup>١٧</sup>

### ج) الفقه وأصوله

الرازي أصولي وفقه شافعي، وأصحابه الشافعية يعرفون له قدره وطول باعه في الأصول خاصة ويضعونه في مقدمة أهل التحقيق من الأصوليين وخصوه بالقب الإمام فإذا أطلق لقب الإمام في كتبهم فالمراد به الرازي، ولقد استوعب وهو لا يزال في مقتبل العمر أهم الكتب الأصولية لسابقه فدرس "البرهان" لإمام الحرمين و"العهد" للقاضي عبد الجبار وحفظ "المستصفي" للغزالي و"المعتد" لأبي الحسين البصري، ولذلك استطاع أن يؤلف في الأصول، هذا ولم يسر وراءهم سير مقلد يجمع ما قالوه ثم يلخصه ويقرره كما قد يتصور البعض ولكنه نظر في كل ذلك نظرة الفاحص المدقق لذلك نجد له مؤخذات على سابقه وخاصة الغزالي وأبي الحسين البصري وملاحظات تدل على تبحره في هذا العلم. أما الفقه فقد ذكر المؤرخون أن الرازي قد ألف شرحاً "لوجيز" الغزالي ولكن لم يتمه، كما بث في كتبه المختلفة وخاصة التفسير الكثير من الآراء الفقهية التي تدل على طول باعه في هذا الباب، كما ألف في الفقه كتاب "البراهين البهائية" بالفارسية وذكر فيه سبعين

<sup>١٧</sup> وفيات الاعيان الجزء الرابع ٢٥٠.

ومائة مسألة فيها آراء الشافعية والحنفية مرجحاً في كل تلك المسائل رأي إمامه الشافعي والترجيح في الفقه من أعلى مراتب الفقهاء.<sup>١٨</sup>

#### د) علوم اللغة

والرازي يرى أن تعلم علوم العربية واجب شرعي، لا يختلف عن وجوب تعلم القرآن والسنة بل هو يرى أن تعلم العربية مقدم على تعلمهما من حيث كونها وعاء للكتاب والسنة لا يمكن فهمهما قبل الإلمام بالعربية، كما يبدي الرازي استغرابه وعجبه من الأصوليين كيف لم يعنوا بضبط اللغة وإخضاع رجالها وطرق نقلها إلى نفس القواعد التي أخضعت لها السنة، فيقول «والعجب من الأصوليين: أنهم أقاموا الدلالة على خبر الواحد أنه حجة في الشرع ولم يقيموا الدلالة على ذلك في اللغة وكان هذا أولى»، وقد قدم لتفسيره ببحث قيم في اللغة تناول فيه الدقائق، كما كتب في المحصول بحثاً في الأحكام الكلية للغات، وله مؤلفات خاصة بفروع لغوية تدل على إلمامه التام بعلوم اللغة.

أما البلاغة فقد اعتبره بعض الكاتبين أول من قعد علوم البلاغة، وأنه هو الذي أوصل ما بين البلاغة الأدبية والبلاغة ذات القواعد والقوانين، وكتابه "نهاية الإيجار في دراية الإعجاز" يعتبر من المراجع البلاغية المهمة.<sup>١٩</sup>

أما النحو فله مؤخذات جيدة على النحاة منها عدم تجويز جمهورهم دخول رب على المستقبل ويرى هو تجويز ذلك لوروده في قوله تعالى ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

<sup>١٨</sup> السيوطي، طبقات المفسرين الجزء الاول ١١٥.

<sup>١٩</sup> العمري، فخر الدين الرازي ٥٧.

[١٥:٢] وينعى على من جوز ذلك استدلالاً بقول الشاعر "ربما تكره النفوس من الأمر" وليس لوروده في القرآن الكريم فيقول «ولو أنهم وجدوا بيتا مشتملا على هذا الاستعمال لقالوا إنه جائز صحيح وكلام الله أقوى وأجل وأشرف، فلم لم يتمسكوا بوروده في هذه الآية على جوازه وصحته»،<sup>٢٠</sup> وقد بث هذه المؤخذات في كتبه وفي مقدماتها "التفسير" و "المحصل" كما أحال على كتاب له في دقائق النحو سماه "المحرر" وهو من كتبه المفقودة.<sup>٢١</sup>

#### هـ) الطب والفراسة

كان الفخر طيباً من أحذق أطباء زمان وأشهرهم، قوي النظر في هذه الصناعة ومباحثها، شرح وهو في مقتبل العمر "قانون ابن سينا" وحظيت تأليفه في التشريح باهتمام أهل هذه الصناعة، قال طاش كبرى زاده «وكتب التشريح أكثر من أن تحصى ولا أنفع من تصنيف ابن سينا، والإمام الرازي»، كما تتلمذ على يديه تلاميذ اشتهروا بالمهارة في الطب مثل قطب الدين المصري.<sup>٢٢</sup>

والرازي يجعل الطب والفراسة فرعاً للعلم الطبيعي، فيقول «أن من أصول هذا العلم يعني الفراسة مستندة إلى العلم الطبيعي وتفاريجه مقررة بالتجارب وكان مثل الطب سواء بسواء»، فهو يجعل الفراسة طباً نفسانياً بالفهوم الحديث، ويرى أنه كما تعالج أمراض الجسد بالأدوية والعقاقير فإن الفراسة علم تعالج به أمراض النفس ويضع لأطباء النفس شروطاً يرى أنه لا بد منها لمن يريد

<sup>٢٠</sup> الرازي، مفاتيح الغيب الجزء التاسع عشرة ١٥٧.

<sup>٢١</sup> الامام الرازي ومصنفاته ٩٢.

<sup>٢٢</sup> عيون الانباء الجزء الثاني، ٣٠.



المهارة في هذا المجال كالعناية بجميع الظواهر النفسية لدى المريض وقوة الملاحظة والمواظبة على العمل وإجراء التجارب الكثيرة.<sup>٢٣</sup>

وقد كان علم الفراسة قبل الفخر علماً ملتصقاً بالدجل يصعب فصله عنه حتى جاء وميزه وأخرجه من هذه الدائرة ليدخله في دائرة العلوم كفرع من الطب واعتبره علماً يقيني الأصول ظني الفروع، وقد أُلّف كتابه "الفراسة" بناءً على رسالة صغيرة لـ أرسطو لم يقف عند ما جاء فيها بل وسعها وزاد عليها مما جعل البعض يعتبرونه المعلم الأول في هذا الباب.<sup>٢٤</sup>

#### (و) الفلسفة

لقد أشتغل الرازي بالفلسفة، تعلماً وتعليماً وتأليفاً: أما التعلم فإن اهتمامه بالفلسفة كان كبيراً، لهذا فإنه لما طلب شيخه مجد الدين الجيلي إلى المراجعة سافر معه حرصاً على استكمال تعلم العلوم الحكمية، وبالفعل فلقد قرأ عليه الحكمة لمدة طويلة. وأما التعليم فإنه كان يباحث في مجالسه في المسائل الفلسفية وباصطلاحاتها. وأما التأليف فقد شرح كتباً فلسفية لابن سينا كالإشارات والتنبيهات، وعيون الحكمة. وله مبتكرات كالمحصل والمباحث المشرقية والمطالب العالية والملخص في المنطق والحكمة وغيرها. وهذا المؤلفات تدل على اهتمامه بالعلوم الحكمية ومدى عنايته بها.

لم يكن الرازي مجرد شارح للفلاسفة اليونانيين، ولا مكرراً لما قالوه بألفاظ عربية، بل كان شديد النقد لهم، وهو ما كان ليستطيع الرد عليهم لو لم يدرس فلسفتهم جيداً، حتى تكونت لديه ثقافة فلسفية عالية، وعقلانية جبارة فذة. لقد اعتبره البعض من المفكرين الأوائل الذين أسسوا حركة

<sup>٢٣</sup> الرازي، الفراسة ٢٧-٢٨.

<sup>٢٤</sup> مفتاح السعادة الجزء الأول، ٣١٠.

فلسفية معتبرة في الفكر الإسلامي، إذ تصرف في الأفكار اليونانية ووظف تلك الأفكار في بحوثه الصوفية بعد تطويرها، وكان يهاجم في الوقت نفسه مختلف النظريات الأرسطية بعنف. ١١٧ وفي ذلك يقول الذهبي (ت ٧٤٨ هـ): «وقد خالف الفلاسفة الذين أخذ عنهم هذا الفن.»<sup>٢٥</sup> وأما الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) فقد رد على من حاول التشكيك في فكر الرازي وعقيدته بسبب إيراده لشبه الفلاسفة في كتبه، لأنه زلزل قواعدهم ولأنه كلما ذكر لهم شبهة إلا وأردفها بنقد شديد، إما ليهدمها ويمحقها، وإما ليزلزل أركانها، كمسألة وجود الله تعالى أنه عين ذاته، وقد رد عليهم بأن الإنسان يعلم قطعاً أنه تعالى موجود ولكنه لا يعلم ما هي ذاته، فلو كان وجوده عين ذاته لاستحال وقوع الشك في ذاته، ولاستحال القطع في وجوده لأن الشيء لا يكون معلوماً ومجهولاً في نفس الوقت.<sup>٢٦</sup>

فهذا المثال يوضح أن الرازي من العلماء الذين قاوموا الفلسفة اليونانية من أجل حماية العقيدة الإسلامية من التشكيك والتشويه،<sup>٢٧</sup> مما جعله علماً شامخاً، لذلك لقي معارضة عنيفة من أنصار الفلسفة اليونانية كالطوسي (ت ٦٧٢ هـ) بسبب حملته على الفلاسفة وبسبب بعض أفكاره التي يعارضهم بها جملة وتفصيلاً، كمبدأ الضرورة وتفسيره للقرآن بطريقة علمية غير معهودة.<sup>٢٨</sup> والطوسي قد أشار في شرح المحصل إلى مخالفة الرازي لما هو مشهور عند الفلاسفة، زيادة على ما

<sup>٢٥</sup> الذهبي، تاريخ الإسلام ٢٠٧.

<sup>٢٦</sup> الصفدي، الوافي بالوفيات الجزء الرابع ٢٥٢.

<sup>٢٧</sup> محمد إقبال، تطور الفلسفي في إيران (القاهرة: دار الفنية، ١٩٨٩) ٩٦.

<sup>٢٨</sup> محمد إقبال، ما وراء الطبيعية في إيران (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧) ١٠٥.

هم فيه يختلفون كاختلافه معهم في اصطلاح الرسم التام والناقص، وفي مسألة التصديق فإن مذهبه يقوم على أنه عبارة عن مجموع التصورات مع الحكم.<sup>٢٩</sup>

ويقول ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) في هذا الشأن: «ومن أراد الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب.» وأما صدر الدين الشيرازي (١٠٥٩ هـ) فقد أولى اهتماما كبيرا للمسائل التي رد فيها الرازي على الفلاسفة، كقولهم أن للطبائع العالية والسافلة غايات طبيعية ونهايات ذاتية، وهو قول يعارضهم فيه بالوجود الذهني لأن الآثار المخصوصة المطلوبة لا تحصل بفعل من الغاية، ولأن الداويع الوهمية قد تكون سببا للتحريكات والتأثيرات الخارجية. واعترض عليهم أيضًا في مسألة صدور الكثرة عن الواحد من حيث هو واحد، لأنه يستحيل أن يصدر أثران عن الواحد وهو ما لا يراه هو، لأنه لم يمنع أن يصدر أثران الواحد، واعترض عليهم أيضًا في قولهم بأن كل متحرك له محرك. هذا ويتعجب الشيرازي من إيراد الرازي للتشكيك في مسألة خروج الشيء من القوة إلى الفعل على التدرج لأن الحكماء متفقون على ذلك.<sup>٣٠</sup> ولأن العبرة بالاتفاق ليس حجة لأن الجماعات البشرية قد تتفق على أرذل الأشياء، ونظرا إلى ذلك فالتشكيك فيه قد يكون في محله طالما أن قولهم يحتمل الإشارة إلى عدم وجود الفاعل الحقيقي أو الانتقاص منه باعتبار أن الأشياء لما تخرج على التدرج تعني ذلك.

وأما اتهامه للرازي بالمباهاة عندما يشعر بأنه قد زلزل قوانين الفلسفة وهدم أصولها، فلا عيب في ذلك ما دام هذا الشعور كان شعورا بشريا ينتاب كل منتصر، ولا يصح أن نقبله عند من

<sup>٢٩</sup> الطوسي، شرح المحصل ٥٤.

<sup>٣٠</sup> صدر الدين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة الجزء الرابع ٢٦-٢٧.

نرضى به ونرفضه عند من نخاصمه، خاصة في الأمور الطبيعية. والذي يراه ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) أن ما ألزم به الرازي الفلاسفة لا محيد عنه. لكنه تراجع في موضح آخر، حيث صنّفه ضمن مجموعة العلماء المسلمين الذين ردوا على الفلاسفة بردود ضعيفة، ولم يصنّفه ضمن مجموعة العلماء التي تضم عددا كبيرا من الأسماء، حيث اعتبر ردودهم أصح من ردود مجموعة الرازي. وقد أكد على تفضيله لهم لأن مناظرتهم للمتفلسفة خير من مناظرة أولئك.<sup>٣١</sup> كما صنّف ضمن مجموعة الرازي بعض الأشاعرة الآخرين كالشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) والآمدي (ت ٦٣١ هـ). وهذا فيه إجحاف في حقهما لأنهما ساهما كثيرا في الرد على الفلاسفة، وفي الحقيقة أن ردود هؤلاء الثلاثة لا تقل أهمية عن ردود الأعلام المذكورين في المجموعة الثانية، ويشهد على ذلك ما تركوه من آثار في هذا الموضوع. والواقع أن ابن تيمية نفسه قد ملأ كتبه بردود الرازي بدل ردود من فضلهم عليه، وهذا ما يدعو إلى التعجب من مواقفه المتناقضة.

#### ز. المنطق والجدل

كان الرازي أول من نظر إلى المنطق باعتباره فناً قائماً بذاته، فيقول ابن خلدون في تاريخه: «ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه -يعني المنطق- من حيث إنّه فنٌّ برأسه لا من حيث إنّه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع. وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخوننجي». أما الجدل فمع أنه يعتبر جزءاً من المنطق فإننا نجد

<sup>٣١</sup> ابن تيمية، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٢١٨.

الرازي قد ميزه عنه وأفرده بالتأليف ووضع فيه كتباً خاصة اعتبرت زبدة هذا الفن وأهم المراجع

فيه.<sup>٣٢</sup>

### ح. علوم الرياضية والطبيعية

اهتم الرازي بهذا النوع من العلوم اهتماماً واعتبر تعلمها بكل أنواعها من التكاليف الشرعية لأنها مما يتم الواجب المطلق إلا به ومعرفة المسائل الهندسية بصورة خاصة يعتبرها فرض عين لأن كل مكلف مأمور باستقبال القبلة والغائب عن القبلة لا سبيل له إلى تحصيل اليقين بجهة القبلة إلا بالدلائل الهندسية فيلزم من هذا أن يكون تعلم الدلائل الهندسية فرض عين على كل احد، ثم يقول: «ولكن الفقهاء قالوا: إن تعلمها مكروه أو محرم ولا أدري ما عذرهم في هذا؟»<sup>٣٣</sup> وقد كتب مؤلفاً خاصاً في الهندسة إضافة إلى ما بثه من المسائل الهندسية في كتبه. أما في الفلك فقد ألف رسالة في علم الهيئة وورد الكثير من المسائل الفلكية في تفسيره لأنه كان كثير الاعتماد عليها في إثبات وجود الله تعالى كما أنه كثيراً ما يركن إليها في الرد على أقوال الفلاسفة وتفنيدها.<sup>٣٤</sup>

أما في العلوم الطبيعية فله أثر ظاهر بنبئك عنه الكثير مما كتبه في التفسير وآرؤه التي أوردها في كتبه الفلسفية مثل المباحث الشرقية، كما يعتقد البعض أن الرازي قد شارك بعض من علماء الحضارة الإسلامية كابن سينا، وثابت بن قزوة، وابن ملكا البغدادي في اكتشاف قوانين الحركة قبل نيوتن.<sup>٣٥</sup> يقول الرازي في كتابه المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعات: «فإذا

<sup>٣٢</sup> تفسير الرازي الجزء الرابع، ١٣٠.

<sup>٣٣</sup> الرازي، مفاتيح الغيب الجزء الرابع، ١٣٠.

<sup>٣٤</sup> الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢٠٩.

<sup>٣٥</sup> الرازي، عمرهسة، ٨-٩.

الجسمان لو اختلفا في قبول الحركة لم يكن ذلك الاختلاف بسبب المتحرك بل بسبب اختلاف حال القوة المحركة فان القوة في الجسم الاكبر اكثر مما في الاصغر الذي هو جزؤه لان ما في الاصغر فهو في الاكبر موجود مع زيادة واما القوة القسرية فانها يختلف تحريكها للجسم العظيم والصغير لا لاختلاف حال المتحرك فان المعروق في الكبير اكثر منه في الصغير».<sup>٣٦</sup> ويقول ايضا «الحلقة التي يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت في الوسط لا شك ان كل واحد منهما فعل فيها فعلا معوقا بفعل الآخر، ثم لا شك ان الذي فعله كل واحد منهما لو خلى عن المعارض لاقتضى انجذاب الحلقة الى جانبه فثبت وجود شيء لو خلى عن المعروق لاقتضى الدفع الى جهة مخصوصة»<sup>٣٧</sup> وهذا يعتبره البعض شرحا لقانون نيوتن الاوالم والثاني والثالث على التوالي.

### ٣. عقيدته

كان الرازي أشعريا وقد رد على من يطعن في عقيدته ويتهمه بمخالفته لمنهج أهل السنة والجماعة كما في خاتمة كتابه "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" بعد سرد له لأسماء بعض كتبه التي قضى عمره في تصنيفها، يقول: «وهذه الكتب بأسرها تتضمن شرح أصول الدين وإبطال شبهات الفلاسفة وسائر المخالفين، وقد اعترف الموافقون والمخلفون أنه لم يصنف أحد من المتقدمين والمتأخرين مثل هذه المصنفات الأخر التي صنفها في علم آخر فلم نذكرها هنا، ومع ذلك فإن الاعداء والحساد لا يزالون يطعنون فينا وفي ديننا، مع ما بذلنا من الجهد والإجتهد في نضرة اعتقاد أهل السنة والجماعة، ويعتقدون أنني لست على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد علم العالمون أنه

<sup>٣٦</sup> الرازي، المباحث الشرقية، ٥٠٣.

<sup>٣٧</sup> الرازي، المباحث الشرقية، ٢٥٨.

ليس مذهبي ولا مذهب أسلافي إلا مذهب أهل السنة والجماعة، ولم تنزل تلامذي ولا تلامذة والدي في سائر أطراف العالم يدعون الخلق إلى الدين الحق والمذهب الحق وقد أبتلوا جميع البدع. ومن المعلوم أنه لا يتيسر شيء من الأمور إلا بالمعاونة والمساعدة لما كان كليم الله عيسى بن عمران مع حججه الباهرة وبراهينه القاهرة يقول مخاطبا للرب سبحانه وتعالى.<sup>٣٨</sup>

#### ٤. مؤلفاته

ألف الرازي كثيرة في جميع علوم عصره شملت فنون التفسير، والفقه، واصوله، وعلم الكلام والفلسفة، والبلاغة، وغيرها. وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنها تصل لحوالي مائتي،<sup>٣٩</sup> منها: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، والتفسير الصغير، أسرار التنزيل وأنوار التأويل، وتأسيس التقديس (أساس التقديس في علم الكلام)، والمطالب العالية من العلم الإلهي في ثلاثة مجلدات ولم يتمه وهو من آخر تصانيفه، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، والمحصول في علم أصول الفقه، والمباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعات لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات (شرح أسماء الله الحسنى)، ومعالم أصول الدين، والأربعين في أصول الدين، والمسائل الخمسون في أصول الدين، والبيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، والمباحث العمادية في المطالب المعادية، وفضائل الصحابة، والقضاء والقدر، ومناقب الإمام الشافعي، والملل والنحل، وإبطال القياس، وسراج القلوب، الجامع الكبير ولم يتم ويعرف أيضا بكتاب الطب الكبير، وعجائب القرآن، والرسالة المحمدية، والرسالة المجدية،

<sup>٣٨</sup> الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين تحقيق: الدكتور سامي النشر، ٩١-٩٣.

<sup>٣٩</sup> ابن كثير، البداية والنهاية

وعصمة الأنبياء، والجمل في الكلام، وتهذيب الدلائل وعيون المسائل وغيرها كثير في شتى العلوم والفنون. قال الداوودي في كتابه طبقات المفسرين: "ورزق سعادة في مصنفاته وانتشرت في الآفاق وأقبل الناس على الاشتغال بها".<sup>٤٠</sup>

### ب. تعريف الكتاب

التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب هو كتاب تفسير للقرآن من تأليف شيخ الإسلام فخر الدين الرازي. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ما هما إلا وجهان لعملة واحدة، وذلك لأنهما اسمان مشهوران بين العلماء والباحثين لتفسير واحد ألفه الإمام الفخر الرازي. وقد حاول بعض العلماء الجمع بين هذين الاسمين قائلين: ألف الرازي تفسيره الكبير المسمى مفاتيح الغيب.<sup>٤١</sup> وهذا التفسير يعتبر أهم تفاسير المدرسة التفسيرية المنتمية إلى التفسير بالرأي المحمود، بل وأفضلها على الإطلاق. إذ يعد هذا التفسير موسوعة علمية متخصصة في مجال الدين الإسلامي عامة، وعلم التفسير على وجه الخصوص. بالإضافة إلى ذلك، أنه عمدة التفاسير العقلية للقرآن الذي يمثل ذروة المحاولة العقلية لفهم القرآن، بل هو مستودع ضخم للتوجيهات العقلية والأقوال النظرية في التفسير. ويعد تفسيراً شاملاً لكونه اشتمل على الجمع بين التفسير بالعقل السليم والنقل الصحيح، فضلاً عن شموله لأبحاث فياضة تضم أنواعاً شتى من مسائل العلوم المختلفة. كما يعد من أطول التفاسير القديمة والحديثة، وأكثرها تفصيلاً وعرضاً للآراء، ومناقشة للمعتقدات والمذاهب المختلفة. ويذكر فيه الإمام الرازي مناسبة السورة مع غيرها، ويذكر المناسبات بين الآيات، ويستطرد في العلوم الكونية، ويتوسع

<sup>٤٠</sup> السيوطي، طبقات المفسرين

<sup>٤١</sup> محسن عبد الحميد، الرازي مفسر (بغداد: دار الحرية، ١٩٧٤ م) ٥٣.



بها، كما يذكر المسائل الأصولية والنحوية والبلاغية، والاستنباطات العقلية. ويبين في تفسيره معاني القرآن الكريم، وإشارات، وفيه أبحاث مطولة في شتى العلوم الإسلامية، كعلم الكلام، وأقوال الحكماء، ويذكر فيه مذاهب الفقهاء وأدلتهم في آيات الأحكام، وينتصر لمذهب أهل السنة في العقيدة، ويرد على المعتزلة، وأقوال الفرق الضالة، ويفند مذاهبهم، كما يرد على الفلاسفة. ويعتبر هذا الكتاب من أجل كتب التفسير وأعظمها، وأوسعها، وأغزرها مادة.

بدأ الإمام الرازي كتابة تفسيره في آخر حياته، بعد أن جاوز الخمسين من عمره، وبعد أن حصل من العلوم المختلفة على ما يؤهله للقيام بهذا العمل، وبعدما نضج عقله وكون فكره، وأكتملت أدواته، فأعطى عصارة جهده لهذا التفسير الضخم الكبير. ومما يدل على ذلك قول الرازي عند تفسيره سورة يوسف سنة ٦٠١ هـ: «وإذا عول العبد على الله لم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن وجه. فهذه التجربة قد استمرت لي في أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين.» لقد شرع الرازي في تفسير القرآن حوالي سنة ٥٩٥ هـ، إذ أشار إلى هذا التاريخ عند فراغه من تفسير سورة آل عمران، واستمر في عمله قرابة ثماني سنوات. فأخر تاريخ أثبتته الرازي في تفسيره كان بمناسبة الانتهاء من تفسيره سورة الأحقاف في ذي الحجة سنة ٦٠٣ هـ. ومن الملاحظ أن السور التي جاءت بعد هذه السورة لم تُثبت تواريخ تفسيرها. استناداً إلى التواريخ المثبتة في أواخر تفاسير السور، يتضح أن الرازي فسّر سورة الفتح قبل سورة الأحقاف بثلاثة أيام. ولا يعلم بشكل مؤكد هل عمل الرازي تفسيره كاملاً أم أنجز القسم الأكبر منه متوقفاً عند سورة الأحقاف. قال ابن خلكان في ترجمته للرازي: «الفقيه الشافعي، فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في

فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جداً لكنه لم يكمله، وشرح سورة الفاتحة في مجلد.

وقد ذهب غالبية الباحثين إلى أنه لم يكمل تفسيره،<sup>٤٢</sup> وأن الذين أكملوا تفسيره من بين تلاميذه: شمس الدين أحمد بن خليل الخوئي،<sup>٤٣</sup> وأحمد بن محمد بن أبي الحزم المخزومي القموي المصري المتوفى سنة ٧٢٧ هـ. وإن أفضل ما قيل في هذا الموضوع ما قاله الدكتور محسن عبد الحميد، حيث أنه توصل إلى نتيجة قاطعة بعد مناقشة مستفيضة تتمثل في أن الرازي قد أتم تفسيره، وأن التفسير الكبير هو بأكمله من كتاباته وتأليفه، باستثناء بعض التعليقات المتناثرة من بعض تلاميذه، أضيفت إلى المتن، أو كتبت في الحاشية، ودخلت في المتن أثناء استنساخه.<sup>٤٤</sup>

أما محتوى الكتاب ومضمونه، يعد هذا التفسير موسوعة ضخمة في تفسير القرآن وعلومه، حيث يقع في اثنان وثلاثون جزءاً في ستة عشر مجلداً من القطع الكبير، مطبوعة ومتداولة بين أهل العلم حيث يحظى بين دارسي القرآن بالشهرة الواسعة نظراً لما يشتمل عليه من أبحاث فياضة تضم أنواعاً شتى من مسائل العلوم المختلفة، كما يعد من أمهات كتب التفسير بالرأي. الإمام الرازي لم يكتب لتفسيره مقدمة مفصلة كما فعل كثير من المفسرين، وإنما كتب في بداية تفسير سورة الفاتحة مقدمة محملة تدل على طبيعة تفسيره، ولم يتطرق إلى الحديث عن أهداف تأليفه للتفسير. لكن الناظر في هذا التفسير يجد أموراً هامة تلفت النظر وتشد الانتباه منها:

<sup>٤٢</sup> الذهبي، التفسير والمفسرون الجزء الأول ٢٩١.

<sup>٤٣</sup> ابن أبي أصيبعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م) الجزء الثاني، ١٧١.

<sup>٤٤</sup> محسن عبد الحميد، الرازي مفسر ٦٠.

١. الاهتمام بذكر المناسبات بين سور القرآن وآياته وبعضها مع بعض حتى يوضح ما عليه القرآن من ترتيب على الحكمة: تنزيل من حكيم حميد.
  ٢. كثرة الاستطراد إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعة وغيرها.
  ٣. العرض لكثير من آراء الفلاسفة والمتكلمين بالرد والتفنيد فهو على شاكلة أهل السنة ومن يعتقد معتقدتهم، حيث يقف دائما للمعتزلة بالمرصاد يفند آراءهم ويدحض حججهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.
  ٤. الرازي في تفسيره لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها مع ترويجهم للمذهب الشافعي الذي كان يتابعه هو في عبادته ومعاملاته.
  ٥. ويضيف الرازي إلى ما سبق كثيرا من المسائل في علوم: الأصول والبلاغة والنحو وغيرها، وان كانت هذه المسائل في مجموعها بعيدة عن الإطناب والتوسع كما هو الحال في المسائل الكونية والرياضية والفلسفية بوجه عام.
- وبالجملة فتفسير الإمام الرازي أشبه ما يكون بموسوعة كبيرة في علوم الكون والطبيعة والعلوم التي تتصل اتصالا من قريب أو بعيد بعلم التفسير والعلوم الخادمة له والمترتبة عليه استنباطا وفهما. وأهم أهداف هذا التفسير تتمثل في الدفاع عن القرآن والاستشهاد له بالعلوم والمعارف، والدفاع عن العقيدة الإسلامية برد شبهات المشككين والطاعنين وبانتزاع الريادة في التفاسير العقلية من المعتزلة، وبيان التناسق والترابط بين السور والآيات القرآنية لإثبات الوحدة الموضوعية للقرآن، وكذلك للتطبيق العملي المفصل لنظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم القرآني.<sup>٤٥</sup>

<sup>٤٥</sup> صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٢ م) ٤٧٣-٤٧٤.

وانظر إليه بعد أن عرض لسورة الفاتحة عرضاً موجزاً في مقدمته إذ يقول: «أما بعد: فهذا كتاب مشتمل على شرح بعض ما رزقنا الله تعالى من علوم سورة الفاتحة، ونسأل الله العظيم أن يوفقنا لإتمامه وأن يجعلنا في الدارين أهلاً لإكرامه وإنعامه. وهذا الكتاب مرتب على مقدمة وكتب، أما المقدمة ففيها فصول: الفصل في التنبيه على علوم هذه السورة على سبيل الإجمال ثم يقول: «اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغبي والعناد وحملوا على ذلك ما ألفوه من انفسهم من التعليقات الفارغة من المعاني والكلمات الخالية من تحقيق المعاهد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول.» ثم يذكر بعد ذلك مقدمة جدلية يشفعها بقوله: فظهر بهذا الطريق أن قولنا «أعوذ بالله» مشتمل على الألوف من المسائل الحقيقية اليقينية... ثم يؤكد ذلك مرة أخرى مع زيادة وتوسع في التفصيل والتوضيح فيقول: «فيثبت بهذا الطريق أن قولنا: «أعوذ بالله» مشتمل على عشرة آلاف مسألة وأزيد أو أقل من المسائل المهمة المعتمدة.

الرازي لم يتبع في تفسيره أسلوباً واحداً ولم يلتزم بطريقة ثابتة. ومما يدل على ذلك أنه أحياناً شرع في تفسير الآية مباشرة، وأحياناً بدأ بشرح علم من علوم التفسير مثل أسباب النزول، وأحياناً أخرى انطلق نحو المباحث البلاغية. وعن منهج الرازي في تفسيره، يقول مفتي تونس محمد الفاضل بن عاشور: "كانت الطريقة المثلى في نظره لإدراك ما في القرآن من أسرار حكيمة، وبث ما تضمنه من

مطالب فلسفية وعلوم طبيعية إنما هي طريقته الكلامية المختارة، المتبعة لمنهج الغزالي، وإمام الحرمين،

وأبي إسحاق الإسفراييني، والإمام أبي الحسن الأشعري".<sup>٤٦</sup>

---

<sup>٤٦</sup> محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله (م.د.: د.ط) ٧٣-٧٤.